موسوعة
المعرفة المسيحية

آباء الكنيسة

٢

مار أفرام السُّرياني

بقلم
الأب يوسف بربي
اليسوعي

www.christianlib.com

دار المشرق
بيروت

www.christianlib.com

طبع هذا الكتيّب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

www.christianlib.com

موسوعة
المعرفة المسيحية

آباء الكنيسة

٢

مار أفرام السُّرياني

بقلم
الأب يوسف بربي
اليسوعي

دار المشرق
بيروت

www.christianlib.com

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للآتين
بيروت، في ٩٠/٧/٩

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ١٩٩٠
دار المشرق ش م م - ص.ب. ٩٤٦، بيروت

ISBN 2 - 7214 - 4595 - 2

التوزيع
المكتبة الشرقيّة، ص.ب. ١٩٨٦
بيروت، لبنان

www.christianlib.com

مار أفرام السريانيّ
معلّم الإيمان، المربّي المسيحيّ

مقدّمة:

تقدّم هذه الدراسة عن مار أفرام السريانيّ مدخلاً إلى سيرة حياته وتمهيدًا إلى آثاره الأدبيّة وتعريفًا لروحانيّته وتفكيره الكتابيّ والرهبانيّ كمعلّم الإيمان والمربيّ المسيحيّ. فبعد التمهيد التاريخيّ للتعرّف إليه في إطار زمانه واتّجاهه الرهبانيّ نلقي نظرة شاملة على آثاره الأدبيّة المختلفة، ثمّ نستخلص أهمّ أفكاره وتعاليمه لافتين إلى مدى تأثيرها في عالمنا اليوم، ونُلحق ذلك بمقتطفات معرّبة من كتاباته.

التمهيد التاريخيّ:

لا بدّ لنا في دراسة سيرة مار أفرام أن نلقي نظرة عابرة على أحوال العالم المشرقيّ ووضع الكنيسة السريانيّة في القرن الرابع الذي عاش فيه مار أفرام.

www.christianlib.com

واللافت للنظر أنّ المسيحيّة لاقت انتشارًا واسعًا في بلاد ما بين النهرين (بلاد العراق اليوم) منذ أن حمل بعض الرسل كلمة البشرى إلى تلك الأصقاع قبل منتصف القرن الأوّل للمسيح. ولكن المسيحيّة التي كانت تحوّلت إلى كنيسة قويّة منظّمة، أضحت بعد نهاية القرن الثالث منهكة القوى، متعبة، إذ عانت كثيرًا من طغيان الفرس والرومان، وقدّمت شهداء كثيرين. وفي بداية القرن الرابع أخذت الدولتان الرومانيّة والفارسيّة تتنازعان السلطة على منطقة ما بين النهرين وسورية. فكانت الدولة الرومانيّة تحكم منطقة ما بين النهرين العليا وأطراف سورية وأنحاء حوض البحر المتوسّط، وكانت الدولة الفارسيّة تحكم منطقة ما بين النهرين السفلى. وعندما أعلن قسطنطين الإمبراطور الرومانيّ مرسوم ميلان عام ٣١٣، وفيه أقرّ الحكم الشرعيّ للمسيحيّين في ممارسة دينهم، تطوّرت الخصومة ما بين الفرس والرومان، وتحوّل النزاع بينهما إلى نزاع عقائديّ دينيّ، إذ رأى ملك الفرس في المسيحيّين أعداء له طالما يدينون بدين ملوك الروم، فبدأ يضطهدهم ويلقيهم في السجون ويأمر بقتلهم.

ولكن طريق الكنيسة في القرون الأربعة الأولى للميلاد كان مغروسًا بالأشواك القاسية. في تلك المرحلة الحاسمة، كانت

www.christianlib.com

الأديرة ودور العلم الدينيّة تنتشر في كلّ مكان، في السهول وعلى الهضاب وفوق الجبال، كما ظهرت في ذلك الوقت البدع الدينيّة، أي الآراء المتطرّفة في المعتقدات الدينيّة وبالأخصّ في هوّيّة ممّا دفع العلماء المسيحيّون إلى الردّ على أصحاب البِدَع وإثبات حقائق الدين المستقيم. وازدهرت اللغة السريانيّة، لغة الكنيسة في المنطقة، إذ دخلتها من الحضارات المجاورة المصطلحات الفلسفيّة والعلميّة. وكان إلى جانب الحركة الفكريّة الواسعة حركة نسكيّة نشيطة، فقد ظهر في هذه الفترة نسّاك ورهبان أتقياء، وكان مار أفرام السريانيّ في مقدّمتهم ببلاد ما بين النهرين، حيث أصبح معلِّم الكنيسة الجامعة وعملاق الأدب السريانيّ. وفي كتاباته تلمّس معاناة شعبه من متاعب الحروب وآلامها والانقسامات الداخليّة القاسية، كما أنّه صمد أمام تيّارات البِدَع الدينيّة متمسّكًا بإيمانه القويم.

أ ـ حياة مار أفرام:

١ ـ نشأة مار أفرام:

وُلِد أفرام بِـ نصّيبين في مطلع القرن الرابع من أبوين مسيحيّين. كانت مدينة نصّيبين سريانيّة، لغةً وحضارة، وكانت مدينة الحدود الفاصلة بين دولتي الروم وفارس، وهي

www.christianlib.com

اليوم داخلة في الأراضي التركيّة وقريبة من قامشلي. وبسبب موقعها على الحدود كانت تتعرّض لحروب طاحنة. ويروي مار أفرام في إحدى كتاباته إنّ والديه ثقّفاه في الإيمان المسيحيّ وربّياه على مخافة الله، وحدّثاه عمّا سبق، إذ إنّهما كابدا مرّ العذاب في سبيل الحفاظ على الإيمان وحبّ السيّد المسيح.

وجرى له وهو شاب يافع حادثة قد تبدو طبيعيّة جدًّا، لكنّها كانت بالنسبة إليه نقطة تحوّل مهمّة في حياته الروحيّة. فذات يوم طارد بقرة رجلٍ فقير دخلت حقل أبيه فاختفت في الغابة، ولّما جاء صاحب البقرة الفقير يفتّش عنها، أهانه أفرام ووبّخه على تركه بقرته ترعى في حقل غيره، فتقبّل الفقير الإهانة ومضى. وحدث بعد أيّام أن سُرق بعض الأغنام من قطيع أحد الرعاة، فاتُّهم أفرام ورُفِعت عليه الدعوى، فزُجّ في السجن وهو بريء، وحزنت نفسه، فرفع قلبه إلى ربّه طالبًا مساعدته لإظهار الحقّ وإنقاذه من السجن. وفي تلك الليلة حلم أفرام حلمًا وكأنّ ملاكًا من السماء ظهر له قائلاً: «حقًّا إنّك بريء من هذه التهمة ولكنّك لست بريئًا من كلّ ذنب».

ولّما استيقظ من نومه أخذ يفكّر في قول الملاك، فتذكّر حادثة مطاردته بقرة الفقير وندم على ذلك كثيرًا وخاصّة على

www.christianlib.com

سوء معاملته الفقير، فتفجّرت عيناه بدموع التوبة وطلب المغفرة من الربّ، ثمّ نذر نفسه لخدمة الله تعالى ووعد أن يهجر العالم حال خروجه من السجن، حيث بقي ثمانين يومًا. وعندما أُطلق سراحه قرّر أن ينجز وعده، فتوجّه إلى الكنيسة وأدّى صلاة الشكر للربّ الذي خلّصه، ثمّ قصد أسقف المدينة، مار يعقوب، وأطلعه على تفاصيل ما حدث له، فرحّب به الأسقف وشجّعه. فأكبّ أفرام على الدرس والمطالعة وتعمّق في مطالعة الكتاب المقدّس، وأتقن اللغة السريانيّة وآدابها. وكان الأسقف المذكور ناسكًا فاضلاً، انفرد منذ شبابه في مغارة قرب المدينة وأخلص العبادة لله، فاختير ليكون أوّل أسقف على نصّيبين. وعلى يد هذا الأسقف الناسك تدرّج أفرام في مبادئ العقيدة المسيحيّة وتعمّق في أصول العلم الدينيّ وفروعه.

وقد أحبّ أفرام أستاذه مار يعقوب واستفاد كثيرًا من علمه الروحيّ. وفي سنة ٣٢٥ رافقه إلى المجمع المسكونيّ في نيقية، حيث كان له لقاءات مع مفكّري الكنيسة، وعلى أثر عودتهما من المجمع، أسّس مار يعقوب في نصّيبين مدرسة لاهوتيّة ازدهرت حتّى القرن السابع، وقد سلّم زمام التعليم فيها إلى تلميذه أفرام الشمّاس. وفي هذه المدرسة نظم أفرام القصائد والأناشيد التي تعرف بالنصيبينيّة، وتُعدّ صورًا رائعة لذلك

www.christianlib.com
العصر في تلك المنطقة، ففيها يصف لنا ما قاسته مدينته في الاشتباكات مع الفرس، ويظهر ما كان في قلبه من إيمان بالله واتّكال عليه تعالى.

٢ ـ رهبنته:

إزدهرت الحياة الرهبانيّة في القرن الرابع للميلاد، وظهر نسّاك في براري سورية الشماليّة والوسطى، وملأت الأديرة جبال ما بين النهرين، ودخل فيها آلاف الرهبان والراهبات. وقيل إنّ أفرام تنسّك على أثر دخوله في مدرسة مار يعقوب أسقف نصّيبين. وقد أتمّ نذوره الرهبانيّة الثلاثة: الطاعة أي أن يخضع لإرادة معلّمه خضوعًا لإرادة الله، والفقر الاختياريّ وهو ألاّ يملك شيئًا من متاع الدنيا، والبتوليّة وهي ألاّ يتزوّج ويصون نفسه عفيفًا في سبيل الربّ. ومن مبادئ الرهبانيّة الصلاة والصوم ومطالعة الكتاب المقدّس وممارسة بعض الأعمال اليدويّة التي تؤدّي إلى تحصيل القوت الجسديّ. وكان أفرام الراهب لا يأكل سوى خبز الشعير والبقول المجفّفة، ولا يشرب سوى الماء، ولا يلبس إلاّ أطمارًا بالية. وقد وصف فلسفته الرهبانيّة في قصيدة خماسيّة الوزن يخاطب فيها نفسه التي روّضها على أعمال التقشّف:

«كم من مرّة جعتُ

www.christianlib.com

وكان جسدي بحاجة إلى الطعام،
ورغب في الماء ليرتوي،
فأهملته ناضبًا لكي يستحقّ أن يذهب
ويتلذّذ بندى فردوس النعيم،
وإذا كان الجسد يكثر دومًا من أودتي في فتوّتي وشيخوختي
فإنّي كنت أروّضه يومًا فيومًا حتّى النهاية.
في صباح كلّ يوم،
كنت أفكّر في أنّني سأموت مساء،
وكالرجل المائت لا محالة،
قمتُ بأعباء عملي كلّ أيّام حياتي دون ملل ولا كلل.
وفي مساء كلّ يوم
كنتُ أتصوّر أنّني لن أكون في الوجود صباحًا،
فأنتصبُ بالصلاة والعبادة حتّى شروق الشمس وبزوغها..
أقمتُ من نفسي ذبيحةً للمسيح،
وفيها قدّمت له أتعاب أعضاء جسمي بخّورًا وعطورًا،
فقد صار ذهني مذبحًا وإرادتي كاهنًا،
وكمثل حمل لا عيب فيه ضحّيت بذاتي قربانًا.
قد حملتُ نيرك يا سيّدي،
منذ فتوّتي وحتّى شيخوختي
وواظبت على عبادتك حتّى النهاية

www.christianlib.com

جذلانَ بلا ملال ولا كلال..
إعتبرتُ ضيق العطش وكأنّه لم يكن،
إذ رأيت سيّدي بسبب خطيئتي
يمتصّ الخلّ من الإسفنجه...»

هكذا كانت الحياة الرهبانيّة لأفرام الراهب حياة مكرَّسةً للربّ، وقد تختلف تفاصيل أسلوبه الرهبانيّ في ذلك الزمان عن الأسلوب الرهبانيّ في هذا العصر، لكن مهما يكن من أمر فلم تكن الرهبانيّة لديه تصوّفًا وانقطاعًا عن العالم وصومًا وصلاة فقط، بل كانت أيضًا خدمة للإنسانيّة ووسيلة لحفظ التراث القوميّ، لذلك فهو جعل من الأديرة مركزًا مهمًّا للعلم والمعرفة، حيث ازدهرت العلوم والآداب. واقتداءً به أكبّ تلاميذه الرهبان على الدرس والتحصيل وعكفوا على البحث والتأليف، فتركوا لنا آثارًا أدبيّة قيّمة وساهموا في ازدهار بلادهم ونشر الحضارة فيها.

٣ ـ هجرته إلى الرّها ورسالته في مجال الثقافة الدينيّة:

عندما سُلِّمت نصّيبين إلى الفرس سنة ٣٦٣، هجرها أفرام وبرفقته نخبة من أساتذة مدرستها وتلامذتها. واستقرّ بعد ذلك في الرّها، التي كانت أشهر مدن بلاد ما بين النهرين

www.christianlib.com

العليا ومركزًا للتجارة بين بلاد الغرب وآسيا الوسطى، وكانت لغتها السريانيّة، وهي اليوم تحت الحكم التركيّ وتسمّى أورفا.

في الرّها تفرّغ أفرام للتدريس في مدرستها، فدرّس الكتاب المقدّس شرحًا وتفسيرًا، وبذلك يكون أقدم من فسّر الكتاب المقدّس عند السريان. وفي الرّها ناهض أفرام من خلال تعليمه اللاهوتيّ البِدَع الدينيّة والهرطقات العقائديّة ممّا جعل القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم (٤٠٧م) يصفه قائلاً: «كان على الهراطقة كسيف ذي حدّين، وقد قاوم في كتاباته التيّارات الفكريّة المعاكسة للدين القويم دون أن يلجأ دائمًا إلى البرهان المنطقيّ الفلسفيّ، بل كان في عظاته الأدبيّة وأناشيده وأشعاره يثبت الإيمان في قلوب المؤمنين ويبعدهم عن الضلال. فنسمعه في أحد أناشيده يقول عن مرقيون أحد المبتدعين الذي طرده أبوه الأسقف لفساد سيرته وانحراف تفكيره المسيحي:

«إنّ الشيطان أضلّ مرقيون وأصابه بالجنون فاحتقر صانعه واستصغر خالقه».

وكان بعض المبتدعين يضلّلون الناس بالاعتماد على الأناشيد الجميلة فحاربهم أفرام بسلاحهم ونظم أناشيد على أوزان أناشيدهم ولقّنها الفتيان والفتيات. وهكذا ارتسخت أناشيده

www.christianlib.com

في قلوب الشبيبة فرتّلوها في الكنائس والبيوت والأسواق، وخزي أتباع المضلّلين. ولّما وجد أفرام الإمبراطور يوليانس يكفر بالدين المسيحيّ ويعتنق الوثنيّة ويعتزم على اضطهاد المسيحيّة، حذّر الناس من طغيانه وشبّهه بذئب خاطف جاء بثياب الحملان محاولاً افتراس الرعيّة الآمنة.

٤ ـ رسالته في مجال الطقوس الدينيّة:

بدأت الطقوس الكنسيّة في فجر المسيحيّة كأدعية تُتلى ومزامير تُرنّم في اجتماعات المؤمنين للصلاة والاحتفال بالقربان المقدّس. واهتمّ مار أفرام بالحياة الطقسيّة في الكنيسة إذ أدخل إليها أناشيده المنظومة على ألحان خاصّة. كما نظّم جوقة مختارة من فتيات الرّها اللواتي علّمهن ما اقتبسه من الأنغام الموسيقيّة وما نظمه من القصائد الروحيّة والتراتيل التي ضمّنها العقائد الدينيّة وناهض بها الهراطقة. وقد صارت أناشيد أفرام وأشعاره جزءًا لا يتجزّأ من الطقس الكنسيّ في حياته وما تزال الكنيسة السريانيّة تترنّم بها صباح مساء.

وإلى مار أفرام يعود فضل تنظيم الحياة الطقسيّة في الكنيسة السريانيّة وتنظيم الجوقات الكنسيّة التي تشنّف اليوم آذان المؤمنين في الكنائس وتخلق في نفوسهم الخشوع وتساعدهم

www.christianlib.com
على التعبّد للربّ والاهتداء إلى الإيمان الأفضل.

٥ ـ رسالته في المجال الاجتماعيّ:

حدث جفاف رهيب في الرّها سنة ٣٧٢ ـ ٣٧٣ عندما انحبست الأمطار وحلّ جوع كبير وظهر الغلاء الفاحش ومات عدد غير يسير من أهلها جوعًا. كان مار أفرام يومذاك في صومعته في الجبل، فلمّا بلغته أخبار هذه المأساة أسرع إلى المدينة حيث قام بزيارة الأغنياء محتكري القمح وأخذ صوته يزمجر قائلاً: «إفتكروا في رحمة الله تعالى وجودته واعلموا أنّ ثروتكم ستمسي وبالاً عليكم ونقمة لكم ودينونة لنفوسكم إلّم تسخوا بشيء منها على الجياع والمنكوبين». فأثّر كلامه فيهم، فاجتمعوا وتداولوا معًا في هذا الأمر وإذ لم يطمئنّوا إلى مَن يأتمنونه على ذلك قال لهم مار أفرام «ما رأيكم فيّ؟» وبما أنّه كان حائزًا على ثقة الجميع قالوا «إنّنا نعرفك رجلاً يتّقي الله» فقال: «إذًا فائتمنوني على هذا الأمر». وكان كذلك فزوّدوه بمال وفير ليوزّعه على أهل الفاقة. فأخذ يؤسّس دورًا يجمع فيها المشرّدين والعجزة. وكان يشرف بنفسه على الاعتناء بهم، واستمرّ عمله هذا سنة كاملة إلى أن انتشر وباء الطاعون بعد المجاعة فاندفع في تطبيب المرضى وموآساتهم حتّى أُصيب هو أيضًا بداء الطاعون. واحتمل آلامه المبرحة وفاضت روحه

www.christianlib.com
الطاهرة في ٩ حزيران ٣٧٣ بعد أن عاش نحو سبعين سنة. وتعيّد له الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة في السبت الأوّل من الصوم الكبير، وكنيسة الروم الكاثوليك تعيّد له في ٢٨ كانون الثاني. وقد أعلن البابا بندكتس الخامس عشر (١٩١٤ - ١٩٢٢) مار أفرام السريانيّ شمّاس الرّها معلّمًا من معلّمي الكنيسة الكاثوليكيّة شرقًا وغربًا.

ب ـ آثاره الأدبيّة:

كانت لغة مار أفرام السريانيّة نقيّة صافية خالية من الشوائب، غنيّة واسعة، وأداة طيّعة التعبير عن مختلف الأهداف الفكريّة.

١ ـ مؤلّفاته النثريّة:

تناول الكتاب المقدّس بعهديه شرحًا وتفسيرًا، وقد اعتمد الترجمة البسيطة. ولكثرة شروحه صرّح بعضهم أنّه لو ضاعت ترجمة الكتاب المقدّس السريانيّة الأصليّة لتيسّر جمع نصوصها من تصانيف مار أفرام. ويعتبر مار أفرام في مقدّمة مفسّري الكتاب المقدّس لدى السريان، واتّبع في تفسيره طريقة

www.christianlib.com
المدرسة الأنطاكيّة التي كانت تتناول النصّ الكتابيّ آية آية فتستخرج معناها الحرفيّ في مفهومه الحقيقيّ والمجازيّ خلافًا لمدرسة الإسكندريّة التي كانت تتّبع التأويل والأسلوب الصوفيّ الرمزيّ. ولم يبق من تفاسيره للكتاب سوى شرح سفر التكوين وجزء من سفر الخروج ومتفرّقات من أسفار العهد القديم.

وله تفسير للإنجيل المختلط المعروف بالدياطسرون الذي وضعه طَيطيانس عام ١٧٠م، ولم يصل إلى أيدينا منه سوى ترجمته الأرمنيّة. كما لم يبق من تفاسيره لرسائل القدّيس بولس إلاّ آيات يسيرة ضمن تفسير الإنجيل لأسقف نسطوريّ من القرن التاسع. وله مواعظ هي شروح لفصول من الكتاب المقدّس، وله فصول مختارة من كتاب في حياة النسك والرهبنة. وله مجموعة قوانين في الحياة الرهبانيّة فُقِد أصلها وحُفِظَت ترجمتها اليونانيّة أورد ذكرها غريغوريوس النوسي (+٣٩٥). هذا وقد تُرجمت مؤلّفاته إلى اليونانيّة في حياته أو في العقد الأوّل بعد وفاته نظرًا لأهمّيّتها، كما نُقلت بعدئذ إلى لغات شتّى، نخصّ بالذكر منها اللغة العربيّة. فقد ترجم إلى العربيّة إبراهيم بن يوحنّا الأنطاكيّ سنة ٩٨٠ عددًا من مقالات أفرام في الرهبنة، كما ثمّة ٥١ مقالة نقلت إلى العربيّة من اليونانيّة حوالى القرن الحادي عشر، هذا وأصلها السريانيّ مفقود.

www.christianlib.com

٢ ـ مؤلَّفاته المنظومة:

الشعر عند السريان نوعان:

١ ـ ما يسمّى بالميامر أي القصائد وهي الملاحم المسهبة التي تعدّ أبياتها أحيانًا بالآلاف، تُسرد فيها القصص الروحيّة وسِيَر رجال الكتاب المقدّس والكنيسة.

٢ ـ ما يسمّى بالمداريش أي الأناشيد وهي تصاغ على أوزان مختلفة وألحان شتّى. وفي كلا النوعين من الشعر يُعتمد على اللحن وعلى النغم لا على القافية كما في الشعر العربيّ. فهو في جوهره شعر غنائيّ يُنشد على جميع الأوتار، وأوزانه لا تُحصر في حدّ ولا أبحره في عدّ. فالبيت لا يعتمد على تآلف المتحرّك والساكن، وقد تتراوح في البيت الواحد بين المقطع الواحد والستّة عشر مقطعًا أو أكثر تفصل بينها محطّات وقف.

ونظم مار أفرام على البحر السباعيّ الذي يكون الموقف فيه عادة بعد المقطع الثالث أو الرابع. وارتأى بعضهم أنّ مار أفرام قد استنبط البحر السابع الذي يُسمّى أيضًا بالأفراميّ. وتناول شعره شتّى المواضيع الدينيّة: العقائديّة والروحيّة فمجّد السيّد المسيح ومدح العذراء مريم والأبرار الصالحين وحثّ النفس الخاطئة على التوبة وهجا الكفرة وعنّف أصحاب البِدَع

www.christianlib.com

وأكثر من سرد الحِكَم. وهو شاعر طويل النفس يمتاز بأسلوبه المسهب والسلس فيتدفّق كالسيل. وميامره ومداريشه تعبّر عمّا احتواه قلبه من الإيمان وما استوعبه عقله من الحكمة، وقد حازت هذه الأشعار مكانة كبيرة في الكنيسة السريانيّة فأُدخِلت في الطقس الكنسيّ وهو لا يزال على قيد الحياة. وذهب بعض النقّاد المعاصرين إلى أنّه كان كاتبًا في الأخلاق واعظًا أكثر منه لاهوتيًّا. ويبدو ذلك صحيحًا لقلّة البحث العقائديّ في كتاباته الشعريّة التي تكثر فيها الاستعارات والصور البارعة والرموز التي تغنّى فيها سائر الشعراء الشرقيّين. كما أنّه ألقى في عظاته شعلة الحميّة ونار الحماس أُسوة بأبناء بيئته.

٣ ـ أشهر آثاره المنشورة:

زيّنت آثاره الدينيّة مكتبات الشرق والغرب وهي تعتبر من نفائس المخطوطات في دنيا المكتبات، إذ يرجع تاريخ بعضها إلى القرون الخامس والسادس والسابع للميلاد. وآثاره هذه في مكتبات معظم مدن الشرق العربيّ الشهيرة وفي مكتبات الڤاتيكان والمتحف البريطانيّ وأكسفورد وبرمنغهام وكيمبرج وباريس وغيرها.

وقد نشر له الأب بطرس مبارك اليسوعيّ ومن بعده

www.christianlib.com

المطران يوسف سمعان السمعانيّ والمطران إسطفان عوّاد ٦ مجلّدات كبيرة الحجم ضمّت كلّ ما حفظته مكتبة الڤاتيكان من مؤلّفاته المنظومة والمنثورة: ٣ مجلّدات منها ما خُطَّ بالسريانيّة، و٣ ما خطَّ باليونانيّة منقولاً من السريانيّة وقد فُقد الأصل وبقيت الترجمة. وقد ضمّت هذه المجلّدات الستّة الصحيح والمنحول من مؤلّفاته ونُشرت مع ترجمتها اللاتينيّة، وقد أعاد طبعها الأب سلييه ضمن ٦ مجلّدات في باريس سنة ١٨٦٠ بعد أن صحّحها ونقّحها وضمّ إليها ترجمته أيضًا. هذا وثمّة منشورات أخرى تشمل وصيّته الأخيرة ورسائله وقصائده من مداريش وميامر منقولة بعضها إلى العربيّة والإفرنسيّة، كما نُقلت مؤلّفاته إلى القبطيّة والحبشيّة واللاتينيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة وغيرها من اللغات.

ج ـ عقيدة أفرام الروحانيّة:

١ ـ في الإيمان:

ـ الإيمان والشهادة: في بعض كتاباته، يربط أفرام بين الإيمان والشهادة باللسان أو الاستشهاد أو البشارة العلنيّة بالملكوت. وأيّ شهادة تتطلّب الصلاة، وهذه تفترض الصمت الداخليّ. والإيمان هو شبيه بالعروس التي تتقدّم موكب

www.christianlib.com

العرس، والصلاة هي العذراء في خدرها.

ـ الإيمان ومعرفة الله: لا يميّز أفرام بين المعرفة الطبيعيّة والمعرفة التي تتجاوز الطبيعة. فمعرفة الله والإحساس به، بوجوده، هي نتيجة عطيّة خاصّة يهبها الله ويفيضها على خلائقه. فإبرهيم اكتسب معرفة الله قبل الوحي وقبل مختلف العلامات والإشارات العلنيّة. وحده الإحساس الباطنيّ كشف له عن وجود الله، ووحدها الفكرة بأنّ للخليقة سيّدًا وخالقًا كانت وراء إيمانه. أمّا الوحي فإنه يثبّت الإيمان ويعمّقه، دون أن يشرح ماهيّة وجود الله. والله الذي يتجلّى، يتّخذ الكثير من الصُوَر التي تبقى محدودة وغير كافية، لئلاّ يعتقد الإنسان بأنّه يستطيع معرفة الذات الإلٰهيّة من خلالها.

ـ الإيمان والتواضع: وحده الإيمان يستطيع توثيق الصلة بين هذا الإنسان وخالقه، ولا شكّ أنّ الإرادة تستطيع أنْ تبقي الإيمان حيًّا ثابتًا أمام العواصف، يمنع النفس من التشتّت والضياع. وصمت الملوك المجوس أمام المزود هو خير علامة للإيمان الباطنيّ القويّ.

ـ الإيمان، حياةٌ إلٰهيّة: الإيمان ليس فضيلة إنسانيّة إراديّة فقط بل إنّه فضيلة إلٰهيّة يستقبل بواسطتها المؤمن حياة الله. ولذلك أنّ الإيمان هو في البداية تأمّل ومشاهدة لحياة المسيح،

www.christianlib.com

ثمّ يتحوّل فيصبح، في مرحلة ثانيـة، حياةً إلٰهيّـة هي حياة المسيح.

ـ الإيمان والأعمال: إنّ تصوّر الإيمان كمبدأ لحياة جـديدة ملؤها الله لا يمنع القدّيس أفرام من الإشارة إلى أهمّية الأعمال في حياة المؤمن. ففي الأناشيد حول الإيمان، يستخدم أفرام التشبيه التالي: كـما أنّ الجسم يحيا بـواسطة النفس وكـذلك بواسطة الخبز، هكذا الحياة الفائقة الطبيعة الخاصّـة بالنفس هي بحاجة إلى تصرّف يتوافق مع الإيمان.

٢ ـ الحبّ:

إنّ الإيمان، وهو الصلة الحيّـة بالمسيـح، يتطلّب الحبّ. فالحبّ والإيمان توأمان لا ينفصلان، هما الجناحان اللذان لا يستطيع المؤمن أن يطير من دونهما. فالحبّ هو الرغبة في الله وكنوزه، وهو الذي يدفع أعمى أريحا إلى أنْ يطلب الشفاء على يد يسوع، وموسى إلى أنْ يرى الله. فالحبّ هو الوصيّة الأولى التي، بدونها، لا حياة حقيقيّة في الله.

٣ ـ الصلاة:

إنّ القدّيس أفرام يفرد المكان الخاصّ بالصلاة، وهي تأتي

www.christianlib.com

في المرتبة الثالثة من حيث الأهميّة، بعد الإيمان والحبّ. فبهذه الثلاث، يستطيع المؤمن أن يدخل إلى دار الكنز وأن يشاهد صاحب كلّ الكنوز والنعم. والمسيح هو الكاهن الذي يعلّمنا كيفيّة الصلاة الحقيقيّة، وهو الوسيط الذي ترفع الصلوات على يده إلى الله الآب. ويشير أفرام إلى واقع هامّ وهو أنّ لا فاعليّة للصلاة إن لم تكن مجرّدة من الأنانيّة وإن لم تكن مرتبطة بمحبّة القريب. وهناك نوعان من الصلاة: صلاة اللسان عندما يجتمع الجسم والنفس لأدائها، والصلاة الباطنيّة التي تتطلّب الخشوع، وهي شديدة الفاعليّة حيث إنّها تطهّر الأفكار والنوايا والرغبات.

٤ ـ الصوم والسهر:

بالنسبة إلى القدّيس أفرام، ينال المنقطع عن اللحم والخمر مكافأة خاصّة عند ولوجه إلى الفردوس الأبديّ. والصوم يعطي النفس بهاءً خاصًّا ويمنح النقاوة للجسم، مثلما حدث لموسى ودانيال. هو إشارة إلى أنّ الطبيعة تقبل التحوّل، وهو يحضّر الأجساد لكي تصبح مشابهة، عند القيامة، لأجساد الملائكة. فالذي يصوم يحتقر الشهوات الأرضيّة ويصبح صديق الأرواح السماويّة، فالجوع والعطش وعدم الرغبة في الأمور الأرضيّة والمآكل والشعور بالفرح في هذا كلّه، هو

www.christianlib.com

علامة الانتصار التامّ على الشهوات. أمّا السهر فإنّه يعطي النفس وعيًا باطنيًّا من شأنه مساعدة الصائم على مقاتلة العدوّ في كلّ حين.

٥ ـ البتوليّة والرهبانيّة:

إنّ البتوليّة كحالة تحياها الطبيعة البشريّة هي استباق لحياة الملكوت والفردوس. هذا لا يعني أنّ الطبيعة هي فاسدة ومن الواجب أنْ تُقمع وتُقهر، بل إنّ إنسان الأرض اكتسب عادات قبيحة لا تُقهر إلاّ بحياة البتوليّة المختارة، التي هي بالتالي هروب من الأرض وانتقال إلى مسكن الملائكة. وهي علامة بأنّ النفس اختارت أنْ تكون عروس المسيح، وأنّ مَن تكرّس لحياة البتوليّة وضع في عمق ذاته صورة المسيح بدل صورة الخلائق. فحيث البتوليّة الناجحة، هناك حضور المسيح الفاعل، وهناك انتصار للإنسان العفيف على الإنسان الشهوانيّ.

أمّا الحياة الرهبانيّة التي تعني انفراد الزاهد في الجبال والصحاري، فهي حياة تتوحّد فيها النفس وتتصالح مع ربّها، مقدّمة للاتّحاد التامّ بالمسيح، العروس السماويّ. هي حياة التوبة الحقيقيّة، أي العودة إلى الله، ونسيان الخطيئة.

www.christianlib.com

٦ ـ تكريم العذراء مريم:

في الأناشيد حول «ولادة الرّب»، يشيد أفرام بفضائل مريم العذراء ويمدح المرتبة التي وصلتها بنعمة إلٰهيّة خاصّة. ومريم التي تقدِّم ابنها إلى العالم، تُشرك البشر في مرتبتها، إذ يستطيع المؤمن رؤية يسوع المسيح، لا بعينَيْ الإيمان فقط، بل بعينَيْ الجسد، كما يستطيع أنْ يرى المسيح تحت شكلَيْ الخبز والخمر.

٧ ـ الروح القدس والأسرار:

لا يتحدّث أفرام في كتاباته الأولى عن الروح القدس إلاّ نادرًا. لكن الكتابات التالية تستدرك هذا الموضوع فتكرّس الأناشيد في الروح الذي هو الحرارة بالنسبة للشمس (الآب) والشعاع (الابن)؛ فالروح هو الحرارة التي تعطي الحياة وتنقّي وتدفع نحو الأعمال الصالحة. أمّا فعله فإنّه يتحقّق بواسطة الكنيسة وفيها، وخاصّة في أسرار العماد والإفخارستيا ومسحة المرضى.

٨ ـ الآب والابن:

إنّ عقيدة أفرام اللاهوتيّة الروحيّة تعطي الدور الأبرز للمسيح الابن، الذي هو الوسيط بين الأرض والسماء. فلا

www.christianlib.com
حياة ولا خلاصًا بدونه، ولا كنيسة ولا فردوسًا، إنْ لم يكن المسيح هو قاعدة كلّ شيء.

د ـ مقتطفات من شعره:

ظلّ مار أفرام يعلّم الإيمان المسيحيّ طوال ٤٨ سنة في مدرستَيْ نصّيبين والرّها ويدافع ضد أصحاب البدع ويبثّه بفيض من الشعر. وتناول في شعره الذي يقال إنّه بلغ الثلاثة ملايين بيتًا موضوعات كثيرة ومتنوّعة، نقتطف منها هذه النماذج:

١ ـ قال وهو يصف العلم:

«إقتنِ المال بمقدار، أمّا العلم فاكتسبه بلا حدّ
إنّ المال يُكثر الآفات أمّا العلم فيورث الراحة والنعيم.
إنّ الحكمة لأفضل من السلاح والعلم خير من المال
وفتى حدث حكيم خير من ملك شيخ أخرق.
أيّها الفتى اقتنِ العلم وكن مستقيمًا في تصرّفاتك
فإنّك تسرّ في هذا العالم وفي الآتي تتنعّم.
إنّ العلم يضفر إكليلاً يتوّج به رأس محبّيه
ويرفع من المزبلة إلى عرش الملك.

www.christianlib.com

لتكن الكتب بمثابة موائد لك فتشبع منها لذة
وبمثابة فراش فترقد سنة الراحة».

٢ ـ يجعل الأرض الظمأى تخاطب البشر الخطأة ويقول:

« لو كان للأرض نطق
لصبّت علينا جامات الغضب
وقذفتنا بوابل من التوبيخ والتأنيب
وتقول:
ما أظلمكم أيّها الناس
إنّ ملامح أبيكم الأوّل تظهر في جباهكم.
لقد لُعنت بسبب خطيئة أبيكم
والآن تلاحقني اللعنة مرّة أخرى بسببكم.
أنتم أيّها الناس تخطئون
وأنا أُلعن
أخطأ أبوكم آدم فنبت الشوك الرديء
وأخطأتم أنتم فجفّ الزهر الجميل.
أنا أمّ لكلّ الناس
كان الأولى بكم أن تقدّموا لي الولاء
فتكرّموني وتهابوني
غير أنّكم احتقرتموني ودستم كرامتي

www.christianlib.com
مزدرين بالقيم وبكلّ المُثُل.
إنّكم أبناء عاقّون
إنّكم تخطئون وتذنبون
وتتنعّمون بعيش رغيد هنيء
وأمّا أنا فرياضي الغنّاء انقلبت إلى قفار
وحقولي النضرة استحالت إلى صحاري.
إنّكم تحتسون الخمور وتشربون كلّ لذيذ وشهيّ
أمّا أنا فقد جفّ قلبي عطشًا وظمأً.
أنتم تغسلون أجسادكم بالأطياب والعطور
أمّا جسمي فقد علاه الغبار
فامتقع لوني وتشوّه جمالي.
كم لقّنتكم دروسًا وعبرًا
وكم وجّهتكم نحو الخير
ولكنّي بدون جدوى.
لم تتعلّموا التواضع في أحضان أوديتي
ولم تستوعبوا الوداعة المنشورة على سطح سهولي
ولم تتلقّوا الدرس من عزم صخوري
ولم تدركوا هيبتي في أعماق بحاري
ولا عرفتم قيمتي من قمم جبالي
حقًا إنّكم لجهلة أغبياء.

www.christianlib.com

أنا شابّة وعجوز في آنٍ واحد.
أنا أمّ عجوز لآبائكم وأجدادكم
وأمّ شابّة لكم ولأولادكم
فاحترموا شيخوختي ووقاري
وهابوا قوّتي وشبابي».

٣ ـ ويتأمّل في ظاهرة ازدراد السمك بعضها لبعض ويقول:

«مررت ذات يوم بساحل البحر فقادني الفكر إلى التأمّل بالأسماك وكيف يزدرد بعضها بعضًا فقضيت منها العجب، ثمّ قلت في قرارة نفسي أليس في الدنيا أناس يزدرد بعضهم بعضًا، فما لي ألوم العجماوات التي لا تقاضى يوم الدين؟ إنّني أُنحي باللوائم على البشر الذين رغم انتصار الدينونة أمام أبصارهم يزدرد بعضهم بعضًا. تبارك الله الذي يطيل عليهم أناته».

٤ ـ في حديثه عن الحياة الرهبانيّة يتحدّث عن السهر والصلاة فيقول:

«إذا لم يختفِ النور

www.christianlib.com

فالظلمة لا تقوى على الظهور
وإذا لم يلمّ النور أشعّته
فالظلمة لا تبسط جناحيها السوداوين.
ما دام الكرى بعيدًا عن عينيك أيّها الساهر
فالظلام لا يمكنه أن يسود عليك.
وما دمت يقظًا أيّها الجبّار
فالشرّ لا يستطيع أن ينشب فيك مخالبه.
وما دام لسانك يلهج بالتسبيح
فالعدوّ لا يقدر أن يتطاول عليك.
وما دامت شفتاك تترنّمان
فقوى الشرّ تبقى محطّمة..
في الصلاة يُضرب إبليس فيقع صريعًا
كما وقع جلياد الجبّار بحجر المقلاع...
عندما يحلّق النسر في السماء عاليًا
فمن المستحيل أن يدرك طيفه،
وما دام سابحًا في الجوّ
فلا يمكن أن يصطاد ظلّه،
وما دام الناسك محلّقًا في الصلاة
فلا يمكن لقوّة في العالم أن تلقي القبض عليه».

www.christianlib.com

٥ ـ يحرّض على الصلاة اليوميّة ويؤنّب الذين لا يتحمّسون للصلاة:

«إسرق لك ساعة من اليوم
وادخل وصلِّ فيها إلى الله
فإنّ صلاتك لن تُغمط
وطلبتك لن تُسلب.
إنّ البشر لا يبكرون للصلاة
كما يبكرون للعمل
ولا يتذوّقون أقوال الأسفار القدسيّة
تذوّقهم للأقوال التافهة،
فهم يتركون الصلاة والطلبة
التي تسعف النفس والجسد جملة
ويخرجون يطوفون الشوارع
فإذا اتّفق وباغتهم الموت
بطلت حالاً توبتهم».

٦ ـ في كلامه عن الصوم يقول:

«إذا كان صومك يحاكي العسل حلاوةً ولسانك يقطر مرارة استحالت الحلاوة مذاقًا علقمًا.

www.christianlib.com

إنّ الفم المفطوم عن الطعام لجدير به أن يُفطم عن الغشّ أيضًا. ذلك أنّ الرتاج الذي يلج فيه الملك السماويّ حرام أنْ يندسّ فيه إثم».

٧ ـ في تأمّله الموت يقدّمه درسًا للإنسان ويقول:

«ضع فكرة الموت نصب عينيك دومًا،
وكلّما شيّعت ميتًا تذكّر أنّك ستُشيَّع يوماً.
مثلما تتساقط الأوراق من الأشجار هكذا يتساقط البشر
من الحياة، فكلّما هبّت ريح الموت لست واثقًا
من إفلاتك. تقول ما يضير إنْ أخطأت في صبائي.
ترى ما حيلتك إنْ خطفتك يد المنون خلسة؟
إنّك تأمل أنْ تتوب في شيخوختك، فهل أنت واثق من بلوغها؟».

٨ ـ يصلّي إلى الربّ ويطلب أن يعطيه قلبًا جديدًا:

«يا إلٰهي إنّ قلبي قد فسد بذنوب وشرور لا تعدّ
فأعطني قلبًا جديدا سيّدي يمقت الدنيا ويزدري بالجسد
أعطني قلبًا مليئًا بالسنى لا ينال السوء قطعًا من أحد
ينشر الحبّ نقيًّا صافيًا سالمًا من كلّ حقد وحسد

www.christianlib.com

أشتهي قلبًا تنقّى بالتقى وبروح الله باهى واعتمد
لا يبالي بعروش وغنىً لا ولا يبغي ثناءً أو مدد
يعشق الزهد صلاة مثلما يعشق الصوم حياةً والجلد
مثل هذا القلب إنْ أعطيتني بعدت عني الخطايا للأبد».

٩ ـ يتكلّم في الحقد والمسامحة فيقول:

«ها إنّ المسيح معلّق فوق ذروة الصليب
ضارعًا عنّا إلى أبيه
وأنت أيّها التراب ابن الترابيّ
مملوء غضبًا وحردًا وحقدًا!
فإن أبغضت قريبك
لن يسمع صلاتك المُسالمُ الكلّ
كلّما حسدت قريبك
وفّرت راحة للأبالسة
وكلّما اغتبت الآخرين
وردّدت معائبهم في غيابهم
فقد جُعل لسانك كنّارة
لغناء (إبليس) النمّام
لا تَنُمّ على القوم
لئلا تسمّى نمّامًا (أي إبليس)

www.christianlib.com

وإن حلّت بعدوّك نازلة
فلا تفرح لئلا تخطأ.
كن ديّانًا لخطاياك
ومحاسبًا لآثامك».

١٠ ـ له أنشودة مؤثّرة في وصف العناية الإلٰهيّة يقول فيها:

اللازمة: «المجد لنعمتك التي تعتني بنا وتحمينا،
المجد لنعمتك التي تعتني بنا وتحمينا».

«أيّها الإلٰه الكريم الرحيم. يا ربّ البرايا أسرع فانشل نفسي من أمواج الشدائد التي تلاطمها من كلّ ناحية. وليس لها مَنْ يحميها ويعتني بأمرها سواك وحدك يا ربّي. فعالجها بنعمتك أيّها الطبيب المفعم رحمة.

أيّها الملك السماويّ. يا مَنْ لا حدّ لملكه، يا إلٰهنا وملكنا وفاطرنا وربّنا. دافع عنّا واعتنِ بنا وقت الشدّة. تداركنا برحمتك سريعًا وأنقذنا من الضيق لئلاّ نهلك.

إلى مَن نذهب وباب مَن نقرع وإلى مَن نفزع إلاّ إليك أيّها الربّ الرحيم؟ فظلِّلنا بأكنافك إذ ليس لنا ربّ غيرك ولا راع يعتني بأمرنا سواك، نجّنا يا فادينا في أثناء الخطوب والرزايا.

www.christianlib.com

إليك أيّها الراعي الصالح نرفع ألحاظنا دائمًا لأنّك أنت ملجأُنا ورجاؤنا وملاذنا. نحن شعبك وغنم رعيّتك فقد سبقت فخلقتنا فاشفق علينا أيّها المولى الرحيم، ووفّقنا أن نشكرِ لك نعمتك مطمئنّين.

لا تهملنا يا ربّ في وقت الضيق ولا تخذلنا ولا تتغاضَ عنّا. أغمض عن سيّئاتنا ولا تعاملنا حسب آثامنا. ولا تدع ذنوبنا تتغلّب على مراحمك. أدّبنا أيّها الربّ الكريم بعطفك لا بسخطك وغضبك. واشفق علينا لأنّنا خاصّتك..

إذا كان الخير والشر قدرًا من الأقدار فلماذا يُحبّ الخير ويُبغض الشرّ؟ وإذا كان الإنسان فاقدًا الحريّة والتمييز بين الحقّ والباطل، يسوق القضاء والقدر ليفعل ما يفعل، فمَن الذي أوحى إلى البشر بعناية الله عزّ وجلّ؟ ولماذا نقّص السيّد المسيح القضاء والقدر ومزاعمه؟»...

هـ ـ وصيّة مار أفرام:

في الساعات الأخيرة من حياته وفي لحظات احتضاره أملى مار أفرام وصيّته الأخيرة على تلاميذه شعرًا فاهتمّوا بتدوينها وقد تُرجمت إلى اليونانيّة بعد وفاته واستشهد بها القدّيس غريغوريوس النوسي (+ ٣٩٥). وقد اعترف مار أفرام في

www.christianlib.com
وصيّته هذه بإيمانه وبيّن تمسّكه بالعقيدة المسيحيّة وحثّ تلاميذه على التشبّه به. جاء فيها ما يلي:

«أنا أفرام مـائت لا محالـة وأدوّن وصيّتي هذه لتبقى من بعدي ذكرًا لكلّ إنسان. الويل لي فإنّ أيّام حياتي قد أوشكت على الانتهاء. لقد نفد الزيت في السراج وقَرُب يوم الأجل. إنّ الأجير قضى ساعة عمله ودنا موعد رحيل الغريب وأوبته إلى وطنه...

«هلمّ يا تلاميذي وأغمضوا أجفاني فأنا مائت لا محالة. يا تلاميذي: إتّخذوا منّي مثالاً لكم: إنّني لم أشتم ولم أخاصم أحدًا البتّة ولكنّي كنت على نزاع دائم مستمرّ مع الكفـرة. ذلك أنّ الحكيم لا يبغض أحدًا، وإن أبغض فـإنّما يبغض الجاهل. أمّا الجاهل فلا يحبّ أحدًا أبدًا وإنْ أَحبَّ فإنّه يحبُّ رفيقه الجاهل...

«لم أملك كيسًا ولا مزودًا ولا عصًا إتمامًا لوصيّة الربّ.

«أقرئوني السلام يا أخوتي وسامحوني لأرحل عنكم (مطمئن البال). أذكروني بصلواتكم وطلباتكم.. أستحلفكم يا أبناء الرّها قسمًا لا حلّ فيه أن لا تحيدوا عن وصاياي ولا تبطلوا شرائعي. ولا تدفنوا جسدي تحت المذبح ولا في الهيكل ولا

www.christianlib.com

مع الشهداء. لا يضع أحدكم على جثماني ثوبًا فاخرًا بل واروا جسدي التراب بثوبي وقبّعتي وذلك في مقبرة الغرباء لأنّي غريب نظيرهم وكلّ طير يأوي إلى شكله.

«لا يجدر البكاء على الصالحين عند رقادهم.. إنّما يليق بكم أيّها الأخوة أن تسكبوا الدموع على أمثالي ممّن بدّد أيّام حياته في الأباطيل...»

الخاتمة:

بإمكاننا أنْ نستخلص من سيرته وكتاباته العبر التالية التي تهمّنا اليوم:

١ ـ برغم تقشّفه ونزعته إلى التنسّك لم يهرب مار أفرام من معترك الحياة الصاخب: بالأحرى إنّه صارع في وسط معترك الحياة وكافح وجاهد الجهاد الحسن، فظلّ يعلّم الإيمان بكلّ حميّة ونشاط طوال ثماني وأربعين سنة بالرغم من الظروف الصعبة كالحروب والتشرّد والمجاعات والمتاعب مستخدمًا كلّ الوسائل الممكنة من قلم ومنبر وكنّارة وصلاة.

٢ ـ إنّه نفذ إلى أعماق النفس التقيّة وركّز على الشعر والموسيقى وسكبهما في ليتورجية رائعة لتمجيد الربّ:

www.christianlib.com

كما يطلب صاحب المزامير قائلاً: «رنّموا للربّ أيّها الصدّيقون، اعترفوا للربّ بالكنّارة وبعود عشاريّ الأوتار أشيدوا له. رنّموا له ترنيمًا جديدًا. أُحسِنوا العزف مع الهتاف... رنّموا لمجد اسمه واجعلوا تسبيحه مجيدًا». وهكذا أنّه حشد ما وهب من عبقريّة فنيّة في خدمة الربّ الواهب.

٣ ـ إنّه كان يتوق إلى القداسة التي هي ثمرة المحبّة على الطريق الضيّق طريق الصليب الذي اتّبعه: فيقول في هذا المجال، إنّه طريق اليقظة والوداعة وفقر النفس.. إنّه طريق الجوع والعطش والعري والخشونة وعدم الرفاهية.. إنّه حين نُذَلّ ونُضطَهد ونُشتَم ونسمع الشرّ ونجازيه بالخير ونصفح عن ذنوب الآخرين ونضحّي بحياتنا في سبيل أصدقائنا ونسفك دمنا عند الحاجة في سبيل المسيح. وكي لا يُظنّ أنّ القداسة لا تأتي إلاّ في الكهوف والجبال والصحاري، يستدرك مار أفرام ويقول: « يتمّ الخلاص أكثر بكثير في المدن والقرى والجزر. يتمّ حتّى في الكنائس. يتمّ حتّى بين الأساقفة والكهنة والشمامسة. يتمّ حتّى بين الملوك والأمراء والحكّام. يتمّ حتّى بين الذين يعيشون في القصور والحصون».

٤ ـ إنّه كان يرى كلّ شيء من خلال ما يراه في الكتاب المقدّس: فكان له الكتاب المقدّس المعين الذي يغرف منه

www.christianlib.com

مادّة فكره ويقدّمه إلينا في شعره ونثره، في أناشيده وعظاته، فكلّ حدث وكلّ صورة وكلّ حركة وكلّ كلمة وكلّ مثل وكلّ تشبيه في الكتاب المقدّس هي ماثلة في ذهنه حاضرة للشهادة في كلّ لحظة. باختصار أنّه كان في كلّ لحظة يعيش بكامله في الكتاب المقدّس.

٥ ـ **إنّه تكلّم بالقلب أكثر منه بالعقل**: ففي إحدى عظاته التي عارض فيها أولئك الذين يحاولون الإمعان في البحث والتفتيش في أسرار الله، هذا ما قاله: «بالنسبة إليّ أيّها الأخوة، فلأنّي لا أملك القدرة على فهم أسرار المسيح لا أجرؤ على اختراق حجب هذه الأسرار، وإذا حاولت النفوذ إلى سرّ هذه الأسرار المقدّسة... فكأنيّ أحاول القبض على الهواء... إنّ هذه الأسرار العظيمة المقدّسة الجديرة بكلّ عبادة لتفوق جميع قواي، لذلك أكتفي بأن أسبّح المسيح وأمجّد الله الآب لأنّه تلطّف بواسطة ابنه الحبيب فخلّصني أنا الخاطئ غير المستحقّ. وإنّني أومن به ببساطة قلب تامّة...».

٦ ـ **إنّه حارب بشكل رائع بدع وانحرافات عصره، وشدّد بشكل حازم على جميع عقائد الإيمان القويم**: وهكذا إنّه ابتعد كلّ البعد عن اللامبالاة والارتخائيّة والإباحيّة المتفشّية في عصرنا اليوم.

www.christianlib.com

المصادر

١- «سيرة مار أفرام السريانيّ ملفان الكنيسة الجامعة» للخورفسقفوس إسحق أرملة السريانيّ ـ بيروت ١٩٥٢.

٢- «اللآلئ المنثورة في الأقوال المأثورة» وهي منتخبات من الأدب السريانيّ، انتخبها ونقلها من السريانيّة إلى العربيّة البطريرك إغناطيوس يعقوب الثالث ـ دمشق ١٩٦٩.

٣- «مار أفرام: نظرات في شخصيّته وآثاره» محاضرات ألقيت بمناسبة الذكرى المئويّة السادسة عشرة لمار أفرام ـ بيروت ١٩٧٣.

٤- «أعجوبة الزمان أو مار أفرام نبيّ السريان» للبطريرك إغناطيوس يعقوب الثالث ـ حلب ١٩٧٤.

٥- «تأثير مار أفرام في الآداب» للخورفسقفوس برهوم يوسف أيوّب ـ حلب ١٩٧٤.

٦- «سيرة مار أفرام السريانيّ» للبطريرك إغناطيوس زكّا الأوّل عيواص ـ دمشق ١٩٨٤.

٧- «المجلّة البطريركيّة للسريان الأرثوذكس» العددان ٢٨ ـ ٢٩: تشرين الأوّل ـ تشرين الثاني ١٩٨٣ ـ السنة ٢١.
العدد ٣٢: شباط ١٩٨٤ ـ السنة ٢٢.

www.christianlib.com

أسئلة للمطالعة:

١ ـ حاول أن تستخلص من كتابات مار أفرام بعض حكمه الأخلاقيّة والإيمانيّة .

٢ ـ تكلّم مار أفرام عن الطريق الضيّق ومشى هو نفسه على هذا الطريق، فصارع في وسط معترك الحياة. وضّح ذلك من خلال مطالعتك لسيرته وكتاباته.

٣ ـ كان الكتاب المقدّس المعين الذي غرف منه مار أفرام مادّة فكره وعظاته؛ بيّن ذلك من دراستك لبعض كتاباته.

٤ ـ كيف تفهم روحانيّة مار أفرام؛ وضّح ذلك عبر كتاباته ومراحل حياته.

٥ ـ هل تجد في سيرة مار أفرام وروحانيّته ما قد يساعدنا اليوم لتفهّم أهمّية الحياة الرهبانيّة؟

www.christianlib.com

فهرس المحتويات

مار أفرام السريانيّ
معلّم الإيمان، المربّي المسيحيّ ٥
أ ـ حياة مار أفرام ٧
ب ـ آثاره الأدبيّة ١٦
ج ـ عقيدة أفرام الروحانيّة ٢٠
د ـ مقتطفات من شعره ٢٦
هـ ـ وصيّة مار أفرام ٣٥
الخاتمة ٣٧
المصادر ٤٠
أسئلة للمطالعة ٤١
فهرس المحتويات ٤٢

www.christianlib.com

صدر من «موسوعة المعرفة المسيحيّة»

آباء الكنيسة

١ ـ إغناطيوس الأنطاكي، الأسقف الشهيد
٢ ـ مار أفرام السريانيّ، معلّم الإيمان، المربّي المسيحيّ

www.christianlib.com

تصميم الغلاف: جان قرطباوي

تنضيد الحروف وتركيب الصفحات: شركة الطبع والنشر اللبنانيّة
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : مطبعة دكّاش

٨٠ ـ ٣ ـ ٩٠/٨/١٥

الأب يوسف بربي راهب يسوعيّ عراقيّ. مارس التعليم في مدرسة رهبانيّته ببغداد، ثمّ في جامعة دمشق. وعمل سنين عديدة في المجال الرعويّ لا سيّما بين الطلاّب الجامعيّين والأسر والمربّين المسيحيّين.

مَنشورات:
دَار المشرق - ص.ب: ٩٤٦
بيروت، لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت، لبنان